سلمان ناطور

هذا الاجتياح....

قد تختلف أسماء الاجتياح الاسرائيلي الذي بدأ في صباح الجمعة ٢٠٠٢,٣,٢٩، وما زال مستمرا بوتائر وأشكال مختلفة، وهو في نهاية الأمر – بغض النظر عن التسميات- يبقى حلقة أخرى في المسلسل الدموي ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية المجاورة منذ العام ١٩٤٨.

«الجدار الواقي»، أو «السور الواقي»، هكذا أطلقت عليه اسرائيل ويبدو أن ما تسميه اسرائيل يصبح الاسم الذي يتبناه العالم وكثيرون من العرب، وقد تكون التسمية الأصح «اجتياح آذار ٢٠٠٢»، لكننا لن نفصله عن الحالة السياسية والعسكرية القائمة منذ أكثر من نصف قرن.

بين ٢٩ أيلول ٢٠٠٠ و٢٩ آذار ٢٠٠٢، لم تكن حالة سلمية، بل كانت حربا متواصلة مهدت لهذا الاجتياح العنيف والدموي الذي اتخذ طابع التصفية، تصفية الحسابات وتصفية السلطة الوطنية وتصفية قياديين فلسطينيين ينتمون الى كافة الفصائل والتيارات وتصفية مؤسسات سياسية واقتصادية وحتى تعليمية وثقافية وبالتالي تصفية قضية وطنية وقومية، هي قضية الشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة ونضاله من أجل الحرية والاستقلال واستعادة حقوقه المسلوبة.

في ٢٩ أيلول ٢٠٠٠ ، أعلنت حكومة اسرائيل (برئاسة ايهود باراك) الحرب على الشعب الفلسطيني وقيادته لأنهما رفضا الاملاءات الاسرائيلية الأمريكية.

في كامب ديفيد رفض المفاوضون الفلسطينيون برئاسة ياسر عرفات شروط الاستسلام والتفريط بالحقوق الشرعية للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حق العودة مقابل «أوتونوميا» مهزوزة تمت صياغتها في مؤتمر كامب ديفيد الأول عام ١٩٧٩ باتفاق مهين بين السادات وبيغن وجيمي كارتر مع تعديلات هامشية لكن مع التمسك بالجوهر.

كل الحروب التي خاضتها اسرائيل كان هدفها تصفية الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، هكذا كانت الحرب الأولى العام ١٩٤٨ حيث نجحت في احباط مشروع اقامة الدولة العربية الفلسطينية حسب

اجتياح آذار – نيسان: مشروع كسر الارادة

قرار التقسيم، وتشريد الشعب الفلسطيني من وطنه، وفي الحرب الثانية العام ١٩٥٦ برز دورها الاستعماري في التعاون مع بريطانيا وفرنسا في ضرب النظام المصري بقيادة جمال عبد الناصر وتصفية المقاومة الفلسطينية في غزة وبدايات تشكل الثورة الفلسطينية لاسترجا ع الحقوق الوطنية المسلوبة، وفي الحرب الثالثة في حزيران العام ١٩٦٧ احتلت كل ما تبقى من الأرض الفلسطينية، وفي الحرب الرابعة العام ١٩٧٣ التي بادرت اليها مصر وسورية لكنها انتهت بابقاء الاحتلال في الجولان واعادة سيناء الى مصر لكن الشعب الفلسطيني دفع ثمنها بتحييد مصر عن الصرا ع وتوقيع اتفاقية سلام أعطت اسرائيل الضوء الأخضر للامعان بمحاولات تصفية الثورة الفلسطينية، فشنت عليها العام ١٩٨٢ حربها الخامسة في لبنان، وها هي تشن الحرب السادسة لنفس الهدف.

كل الحروب التي شنتها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني تقوم فقط على منطق القوة المطلقة، حتى أن وجود الكيان الاسرائيلي يقوم على القوة وليس على العدالة، القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية وحتى الحضارية.

قام النضال الفلسطيني منذ أكثر من خمسة عقود على منطق العدالة المطلقة وبطبيعة الحال لم يملك القوة لمواجهة القوة المضادة، فكان يخسر المعركة لكنه – كما يقال– لا يخسر الحرب، وفي هذه الحرب الأخيرة يحاول أن يرتقي بالقوة الى مرتبة العدالة ليناضل بعدالة القوة وبقوة العدالة، ولهذا السبب تطول هذه الحرب وتضطر اسرائيل، ازاء صلابة المقاومة الفلسطينية، الى دفع كل قوتها العسكرية والسياسية في محاولة لكسب انتصار ولو وهمي، ولكن ما تحقق حتى الآن هو أن منطق القوة المطلقة بدأ يظهر هشاشته وعجزه..

ما الذي كان باستطاعة اسرائيل أن تفعله ولم تزج به في المعركة؟ منذ أكثر من خمسمائة يوم تفرض حصارا خانقا على الشعب الفلسطيني، بهدف التجويع اليومي والاذلال وتضييق الحياة عليه لاكراهه على الرحيل، واستعملت أحدث أسلحتها الجوية والبحرية والأرضية في قصف المدن الفلسطينية والقرى والمخيمات وما تقوم به من أعمال بربرية ضد المدنيين والمواطنين العزل من قتل جماعي ومذابح وتدمير دون أي رادع ولا اكتراث بالرأي العام والقرارات الدولية ودعوات الحكومات والمنظمات والحركات الشعبية في العالم بأسره، كل ذلك يؤكد هزيمة منطق القوة أمام منطق العدالة المسنودة بقوة الحق والاصرار الشعبي على جعل هذه الحرب آخر الحروب.

شارون قاتل في كل حروب اسرائيل من جندي نفر في عام النكبة

الى جنرال في الاحتياط في حرب أكتوبر ووزير حربية في حرب لبنان واليوم رئيس حكومة، بالنسبة له – كما يبدو– لم تنته الحرب الأولى ما لم تحقق أهدافها وهي اقامة الدولة اليهودية النظيفة من العرب ومن النهر الى البحر، والشعب الفلسطيني صاحب هذه الأرض هو العقبة الوحيدة التي تمنع تحقيق هذا الحلم، ولذلك فانه سيحاول اغلاق الدائرة التي بدأتها الحرب الأولى، ولا يختلف معه كل الذين يساندونه في الحكومة من وزيره الجديد ايفي ايتام وحتى شمعون بيرس تلميذ بن غوريون، ووزراء حزب العمل وعلى رأسهم رئيس الحزب، فؤاد بن اليعيزر، وهؤلاء يعطونه الفرصة لينفذ المشروع، فان نجح ركبوا على النجاح وان فشل يظل الباب الخلفي مفتوحا بحيث يتنصلون من المسؤولية في انسحاب من الحكومة قبل فوات الأوان.

ما هو الثابت والمتغير بين الحرب الأولى والحرب الأخيرة؟

الأيديولوجيا التي تحكم القيادة الاسرائيلية لم تتغير، والتي هدفها اقامة كيان صهيوني يهودي في قلب الشرق الأوسط، في فلسطين ليكون كما وصفه هرتسل: «محطة للغرب المتطور كي يعبر الى الشرق المتخلف». انه كيان في قلب الشرق ولكنه ليس جزء منه، انه كولونية غربية، يرفض أن يكون شرقيا لأنه يحتقر الشرق، يحتقر حضارته وشعوبه، واذا كان وصف شعب هذه البلاد في النكبة الأولى بأنهم مجرد بدو رحل أو قطاع طرق، كما وصفهم المستعمرون الأوروبيون في مراحل سابقة ليستولوا على بلادهم، فان القادة الاسرائيليين اليوم يصفونهم ارهابيين لتبرير تشريدهم وقتلهم أمام هذا الغرب الذي تتواطأ حكوماته وعلى راسها الادارة الأميركية مع الاسرائيليين على ذبح الشعب الفلسطيني الذي يوصف بأنه ارهابي وتحت شعار مكافحة الارهاب.

لم تتغير سياسة التطهير العرقي، التي أدت الى قتل عشرات الآلاف من الفلسطينيين في نكبة الحرب الأولى وتشريد حوالي سبعمائة ألف فلسطيني، ثم ملاحقتهم في مخيماتهم بواسطة الفرقة ١٠١ التي أقامها شارون لهذا الغرض، وفي غزة العام ١٩٥٦ وفي حزيران ١٩٦٧ ثم في لبنان من ١٩٧٨ (عملية الليطاني واحتلال جنوب لبنان لأول مرة) وحتى نيسان ٢٠٠٠ (الانسحاب من جنوب لبنان) وها هي الكرّة تعود وسط نداءات عنصرية تدعو الى الفصل بين اليهود والفلسطينيين ومخططات ترانسفير ينظّر لها وزراء وأعضاء كنيست وتلقى تأييدا واسعا في الشارع الاسرائيلي، كالتأييد الذي تحظى به هذه الحرب، وكل الجرائم التي يرتكبها الجيش الاسرائيلي.

لم تتغير النظرة الى العرب أنهم لا يفهمون الا لغة القوة، وأنهم لا يحترمون الاتفاقات الموقعة معهم، وأن ما يقولونه شيء وما يفعلونه شيء آخر، ولذلك لا فائدة من التوقيع على أية اتفاقات معهم وان وقعت فهي حبر على ورق، ولذلك فان فرض سياسة الأمر الواقع هي انجع الطرق لتحقيق مكاسب توسعية، هكذا وسعت الدولة اليهودية حدودها في الحرب الأولى ثم

اجتياح آذار – نيسان: اعتقالات جماعية في مدن تحولت إلى سجون

في حزيران ٦٧ والمباشرة ببناء المستوطنات وفي هذه الحرب يلغى ما اتفق عليه في اتفاقات أوسلو وفرض واقع جديد. منذ ذلك الحين ترفض اسرائيل تحديد حدودها ما لم تضمن الحدود التاريخية للدولة العبرية من قبل ألفي عام، والحدود كما قال موشي ديان في حينه- تحددها الدبابة الاسرائيلية.

لم يتغير مفهوم اسرائيل أن ما يضمن لها الأمن والسلام هو قوة ردعها العسكرية، ولذلك فعندما تستعمل الآلة العسكرية تقوم بعملها بكل قوة وعنفوان، وبشاعة المجازر التي ارتكبتها في النكبات السابقة وترتكبها اليوم هي للردع والتخويف والتشريد وترسيخ الايمان في قلوب الاسرائيليين أنه مادام لاسرائيل جيش قوي فهو الذي يضمن لها «الأمن والسلام»، ولذلك فهي بحاجة دائما الى قائد عسكري قوي مثل بن غوريون في النكبة الأولى وها هو شارون ابن مدرسته في النكبة الثانية، والى جيش قوي مسلح بأحدث الاسلحة والى القنبلة النووية.

هذه هي الثوابت، أما المتغيرات ففي الشعب الفلسطيني، في أن العتمة لا تأتي على قدر يد الحرامي.

جاء المستعمرون اليهود الأوروبيون الى فلسطين منذ بداية القرن العشرين (ما يسمى الهجرات اليهودية) وهم يحملون الأفكار الأوروبية الاستعلائية عن الشرق والعرب والمسلمين، واصفين هذه البلاد بأنها صحراء قاحلة وأهلها متخلفون، وقد كثرت الأدبيات الصهيونية التي رفعت من شأن المستوطن الجديد وقللت من شأن أهل البلاد العرب، أولا لابراز الرسالة «الحضارية» لهذا المستوطن وثانيا لنزع شرعية بقاء أهل البلاد في وطنهم أي أنهم لا يستحقون بلادا كهذه كانت مهدا للحضارة الانسانية وتقع وسط قارتين وهي محط أنظار الغرب.

لم يكن بمقدور الحركة الصهيونية أن تحقق أهدافها الا بتشريد شعب البلاد العربي، ولا يمكن أن يتحقق ذلك الا بالعنف.

نكبة العام ١٩٤٨ هي الفصل الأول في هذا المسلسل الدموي القائم على المجازر. لقد اتبعت القوات الاسرائيلية نهجا واضحا وثابتا لم يتغير حتى اليوم، وهو القيام بمجزرة في الأماكن التي تخطط للسيطرة عليها، بهدف تخويف سكانها وترحيلهم. مجزرة دير ياسين في نيسان ١٩٤٨ لم تكن الا واحدة من مجازر لا تقل فظاعة وبشاعة، وقد ارتكبتها عصابتا «الايتسل» و«الليحي» واستنكرها بن غوريون وقادة الهغاناة وهولوا لها، لاثارة الفزع في جميع أنحاء فلسطين وللتغطية على المجازر التي ارتكبتها قوات الهاغاناة نفسها في مناطق اخرى، ففي اللد والرملة نفذت قوات الهاجاناة نفسها مجزرة لا تقل بشاعة وفي الطنطورة وفي قرية الصفصاف الجليلية، ومن يراجع ملف المجازر التي ارتكبت في عام النكبة لا بد ان يلاحظ أن ما من قرية أو مدينة هجر اهلها الا ارتكبت فيها مجزرة رهيبة.

بين/تحت الركام.. في حي القصبة المنكوب بنابلس

هذا الأسلوب حقق لاسرائيل أهدافها العسكرية والديمغرافية، وقد حاولت ممارسته العام ١٩٥٦ في مجزرة كفر قاسم حيث استغلت ظروف الحرب في سيناء لتشريد سكان المثلث الجنوبي وتوسيع «خاصرتها الضيقة» بين نتانيا وطولكرم وكفار سابا وقلقيلية، ولكنها فشلت ولم يهرب سكان

كفرقاسم وغيرها من قرى المثلث، وكررت نفس الأساليب في حزيران ١٩٦٧، وها هي تمارس هذا الأسلوب في نيسان ٢٠٠٢.

فاجأ الفلسطينيون في رام الله وجنين ونابلس الاسرائيليين بأنهم لم يهربوا. لم يهربوا من مدنهم ولا قراهم ولا مخيماتهم، لقد قاتلوا ودافعوا باستماتة عن كل موقع فلسطيني، ولم يتركوا بيوتهم حتى عندما ضربت بصواريخ الأباتشي وال«ف. ١٦» وهدمتها الجرافات، لقد خربطوا حسابات الجنرالات الاسرائيليين.

بعد فشل الآلة العسكرية ستلجأ اسرائيل الى المناورات السياسية، الى اللعبة مع القوى الثلاثية التي مررت مخططاتها بعد النكبة الأولى، وهذه القوى هي: قيادة بديلة للشعب الفلسطيني تقبل بالحلول التي تمليها اسرائيل وبسياسة الأمر الواقع. الأنظمة الرجعية العربية، التي تقبل بأن تكون شريكة في احاكة مؤامرة على مصير الشعب الفلسطيني، والمشروع السعودي الذي تبنته القمة العربية هو طرف الخيط لأنه ككل المشاريع العربية السلطوية الأخرى بدايته جيدة لتخدير الرأي العام العربي ولكن نهايته خطيرة جدا، (خطاب السادات في الكنيست الاسرائيلي في تشرين الثاني ١٩٧٧ يبدو مشروعا قوميا ووطنيا من الدرجة الأولى، قيل في عقر دار اسرائيل، ولكن كيف انتهى ؟) والقوة الثالثة هي أنظمة الغرب وعلى رأسها الادارة الأمريكية، التي ستسير مصالحها على حساب الشعب الفلسطيني وليس على حساب اداتها الاستعمارية في الشرق.

هذه القوى الثلاث كانت دائما مجتمعة في خدمة المشروع الصهيوني، فهل ستنجح في اعادة الكرّة اليوم؟.

اسرائيل فشلت عسكريا في تنفيذ مخططها، والشعب الفلسطيني قدم تاريخيا أحد أهم الدروس في الصمود والوطنية والتضحية، ولكي تفشل سياسة شارون وبيرس على الشعب الفلسطيني أن يرتقي بصموده السياسي وصلابته وشجاعته الى نفس المستوى بأن لا تعطى الفرصة لحكومة اسرائيل لتمرر هذه النكبة الجديدة مثلما مررت النكبة الأولى وحولتها الى حالة مزمنة.

سيكتب الكثير عما فعلته اسرائيل وما زالت في هذه الحرب، ونحن سنعود اليها في أعداد مقبلة من خلال دراسات وأبحاث، لباحثين عرب واسرائيليين، في هذا العدد نقدم وجهات نظر اسرائيلية خارجة عن الاجماع القومي الصهيوني والاسرائيلي الرسمي وشبه الرسمي، في فهمها وتقييمها لهذه الحلقة الجديدة من مسلسل العنف الاسرائيلي. انها أصوات مهمشة ولكنها ذات نبرة مختلفة ولا بد أن تحدث الصدى المطلوب.

..ولا حصانة لأحد من القمع.